جهود الأمة في مقاصد القرآن الكريم

الدكتور أحمد الريسوني

كلية الآداب ــ الرباط

عناية المسلمين بكتابهم الكريم شملت كل ما فيه وكل ما يتصل به: من حفظه في الصدور، وحفظه في السطور، ومن إبراز لوجوه إعجازه وأسرار بلاغته، إلى عنايتهم بفنون تجويده وترتيله، وشرحِ ألفاظه وعباراته، وبيان معانيه ودلالاته. ومن ضبط رسمه وشكله، وقراءاته ولُغاته، إلى إعرابه وشرح غريبه. ومن تاريخه وأسباب نزوله إلى استقراء قواعده وكلياته، وتحليل قصصه وأمثاله. ومن عَدِّ حروفه وآياته إلى سبر مقاصده ومناسباته...

غير أن العناية بهذه العلوم والدراسات القرآنية لم تكن متساوية، ولم تكن دائما مطابقةً لما لها من أهمية، بل نجد منها قضايا استوفت حقه أو كادت، وأخرى استوفت حقها ثم زادت. بينما نجد بعضها لم يظهر إلا متأخرا، وبعضها ما زال ينهض متعثرا، كما هو شأن العناية بالتناسب ومقاصد السور. وأما العناية الخاصة المنفردة بالمقاصد الكلية للقرآن الكريم، فلم تبرز بوضوح إلا مع بعض المفسرين والدارسين المحْدَثين والمعاصرين، مع أن معرفة هذه المقاصد وتحقيقَها هي الفائدة الكبرى والغاية القصوى للقرآن وعلومه ومباحثه.

وقد وجدنا الزركشي حتى أواخرِ القرنِ الثامن الهجري يشكو من بعض مظاهر النقص والقصور في هذا اللون المعمق من الدراسات القرآنية. فقد تطرق إلى علم التناسب بين السور والآيات فقال: "وقد قَلَّ اعتناءُ المفسرين بهذا النوع لدقته. وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي...".

ثم قال: "وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة".

ثم نقل عن القاضي أبي بكر بن العربي قوله في (سراج المريدين): "ارتباطُ آيِ القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متَّسقةَ المعاني منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة. ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حمَلَة، ورأينا الخلق بأوصاف البَطَلَة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"[1].

وهذه الواقعة تدعو إلى الاستغراب والدهشة، بقدر ما تدعو إلى الأسى والحسرة !! فقد فاتنا فتح علمي قرآني رائد، كان سينطلق ويتواصل منذ القرن السادس الهجري، لكنه دفن مع صاحبه، أو قبل صاحبه!!

مقاصد القرآن على درجات

---

[1] – البرهان في علوم القرآن – (1 / 36)

مقاصد القرآن التي يمكن الحديث عنها تقع على ثلاث درجات، أو ثلاثة مستويات، هي: مقا صد الآيات ، ومقاصد السور، والمقاصد العامة للقرآن[1]. ومقامنا هذا إنما يتسع ويصلح لبيان المستوى الثالث. أما الأول والثاني، فسأقتصر على ذكرهما بإيجاز، فقط لتكون الصورة حاضرة مكتملة في الأذهان.

1. المقاصد التفصيلية للآيات القرآنية

هذا المستوى من المقاصد لا يحتاج إلى تعريف، ولا إلى تطويل شرح وبيان، لكون المقاصد التفصيلية لِآيِ الكتاب هي التي يعنى بها المفسرون قاطبة، سواء جاء ذلك قصدا منهم أو ضمنا في كلامهم؛ إذ بيان المعاني والحكَم المقصودة من كل آية، وكل جملة وكل لفظة قرآنية، هو غرض عامة المفسرين من تفاسيرهم.

على أن كثيرا من المقاصد الجزئية للقرآن الكريم مندرج قبل ذلك في بيان السنة النبوية للكتاب الكريم.

2. مقاصد السور

علم التفسير – كغيره من العلوم – بدأ مهتما بالجزئيات والأمور التطبيقية في القرآن، فمنها انبثق وعليها نشأ. ثم تطور لاحقا إلى شيئ من الاهتمام بالبحث النظري الكلي. غير أن هذا التطور التنظيري في علم التفسير قد تأخر كثيرا في عدد من القضايا القرآنية، مقارنة بالحركة الفقهية، التي ترقت بسرعة، فأنتجت لنا علمَ أصول الفقه، والقواعدَ الفقهية، ومقاصدَ الشريعة، في وقت مبكر، بينما نجد تأخرا واضحا في اهتمام المفسرين بقضايا كلية من قبيل مقاصد السور (فضلا عن مقاصد القرآن جملة)، وعلمِ التناسب، ومناهجِ التفسير وقواعده، والتفسير الموضوعي.

وفيما يخص مقاصد السور التي نتحدث عنها في هذه الفقرة، فإن أول بداية واضحة لخوض هذا الغمار، هي التي نجدها في كتاب (**مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**) لبرهان الدين البقاعي، المتوفى سنة 885هـ

يصور البقاعي أهمية مقصود السورة ومحوريته في نظم آياتها ومسائلها، بقوله: "ومَن حقق المقصود منها ، عرف تناسب آيِها ، وقصصِها ، وجميعِ أجزائها... فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ، ويستدل عليه فيها. فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه ، وأبدع نهج...فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية ، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية ، المزينة بأنواع الزينة، المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها ، وشعبة ملتحمة بما بعدها. وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها،

---

[1] – هذا التقسيم الثلاثي يشبه، بل يكاد يطابق التقسيم المعروف لمقاصد الشريعة إلى: مقاصد جزئية، ومقاصد خاصة، ومقاصد عامة. انظر: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي لأحمد الريسوني، ص19 – 20

فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملةً على دوائر الآيات الغُرِّ، البديعة النظم ، العجيبة الضم ، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها"[1]

وأنقل فيما يلي نموذجين من كلام البقاعي عن مقاصد السور.

يقول عن مقاصد سورة الفاتحة: "... فلا سورةَ في القرآن أعظمُ من الفاتحة ، لأنه لا مقصود أعظم من مقصودها. وهي جامعة لجميع معاني القرآن ، ولا يلزم من ذلك اتحاد مقصودها مع مقصوده بالذات ، وإن توافقا في المآل ، فإنه فرق بين الشيء وبين ما جمع ذلك الشيء. فمقصود القرآن ، تعريف الخلق بالَملك ، وبما يرضيه. ومقصود الفاتحة غاية ذلك ، لكونها غاية له ، وذلك هو المراقبة المذكورة، المستفادة من التزام ذكره تعالى في كل حركة وسكون ، لاعتقاد أنه لا يكون شيء إلا به. وعلى جلالة هذا المقصد، جاءت فضائلها."[2]

وعن سورة المائدة يقول: "ومقصودها: الوفاء بما هدى إليه الكتاب ، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ، ورحمة الخلائق ، شكراً للنعمة ، واستدفاعاً للنقمة."[3]

وقد واصلَ البقاعيُّ رحمه الله سبر مقاصد السور وتجليتها في كتابه اللاحق، المسمى (**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**)، والذي وصف فيه كتاب (**المصاعد**) بأن كالمدخل لكتاب (**نظم الدرر**)[4].

أما حديثا فقد تزايدت عناية العلماء – والمفسرين خاصة – بمقاصد السور، وبالوحدة الموضوعية لكل سورة، كما نجد – على سبيل المثال – عند ابن عاشور في (**التحرير والتنوير**)، وعند محمود شلتوت في تفسيره لبعض سور القرآن، وعند محمد عبد الله دراز في كتابه (**النبأ العظيم**)، وعند سعيد حوى في تفسيره المسمى (**الأساس في التفسير**).

3. المقاصد العامة للقرآن

يتعلق هذا القسم بالمقاصد العامة الجامعة، التي أنزل القرآن لأجل بيانها للناس وتوجيههم إليها وحثهم على إقامتها ورعايتها، بحيث نجد العناية بها والقصد إلى تحقيقها في عامة سور القرآن وأجزائه.

وقد عرفها الدكتورعبد الكريم حامدي بقوله: "أما المقاصد العامة فهي تلك الأغراض العليا الحاصلة من مجموع أحكام القرآن"[5]. وقد أدرج فيها المقاصد العامة للشريعة، التي "هي المعاني الملحوظة في جميع القرآن أو معظم أحكامه"[6]

هذه المقاصد العامة للقرآن يمكننا ولوجها والتعرف عليها من خلال مسلكين أو بابين:

---

[1] – مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور – (1 / 149)

[2] – مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور – (1 / 210)

[3] – مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور – (2 / 106)

[4] – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – (6 / 282)

[5] – مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، ص47

[6] – مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، ص51، والعبارة مقتبسة من تعريف ابن عاشور للمقاصد العامة للشريعة. انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية بتحقيق الشيخ ابن الخوجة ص 165

المسلك الأول: ما جاء التنصيص عليه في القرآن نفسه، من وظائف وأوصاف وتعليلات لهذا الكتاب الكريم وما أنزل لأجله، وما يتحقق بتلاوته واتِّباعه من نتائج وآثار وفوائد.

المسلك الثاني: هو استقراء مضامينه وأحكامه التفصيلية، واستنباط العناصر المشتركة الجامعة لما تُركزُ عليه وما تدعو إليه.

– أما **المسلك الأول**، فيكفينا فيه أن نستحضر الآيات المتضمنة لهذا الغرض، أو المنبهة عليه. وهي آيات لا تحتاج إلى شرح أو تفسير، ولكنها قد تتطلب – أحيانا – شيئا من التأمل والتفكير.

القرآن يتحدث عن نفسه ومقاصده

فيما يلي جملة من المقاصد الصريحة الواضحة من مقاصد الكتاب العزيز، وهي منصوصة ومشار إليها في كل أنحاء القرآن:

مقصد توحيد الله وعبادته:

– الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ [هود : 1 - 3]

– تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ [الزمر :1- 2]

مقصد الهداية الدينية والدنيوية للعباد

– شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ [البقرة : 185]

إ– نَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء : 9 ، 10]

– قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا [الجن: 1 ، 2]

– قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ [الأحقاف:30]

– وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل : 64[

– وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل : 89]

– الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ [البقرة : 1 ، 2]

– فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 38]

– فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى [طه: 123]

– يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [سورة المائدة: 16]

مقصد التزكية وتعليم الحكمة

- كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

- لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [آل عمران : 164]

- وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ [البقرة : 231]

مقصد الرحمة والسعادة

- وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء : 82]
- طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى [طه : 1 - 3]
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ [الأنفال : 24]
- وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون [البقرة : 179]

مقصد إقامة الحق والعدل

- لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ [الحديد : 25]
- وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [الأنعام : 115]
- وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ [المائدة : 48]
- اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ [الشورى : 17]
- الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [الرحمن : 1 - 9]

- وأما المسلك الثاني فهو:

علماء يستنبطون مقاصد القرآن

وهذا المسلك إلى معرفة مقاصد الكتاب العزيز؛ تكفل به عدد من العلماء، قاموا - ويقومون - باستقصاء مقاصد القرآن واستقراء دلالاتها الكلية، نظرا لما ينبني عليها من آثار بالغة في الفهم والتدبر والعمل. وقد أمرنا الله تعالى بالاعتماد على أهل الذكر العارفين به {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : 43]، وأمرنا برد ما خفي علينا إلى أهل العلم والاستنباط {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء : 83]

ومن المعلوم بالتجربة والأمثلة أن العالِم الذي تَطُولُ عشرتُه ومعاملته وتدبره لكلام الشارع وأحكامه، يصبح - بفضل هذه العشرة - خبيرا بما يقصده الشارع وما لا يقصده. فهو تماما كمن

يصحب شخصا زمنا طويلا؛ يسمع كلامه ويعاين أحواله، ويطلع على خبايا تصرفاته، فإنه – بعد ذلك – يستطيع أن يحكم جازما على أي قول من أقواله أو فعل من أفعاله، بأنه يقصد به كذا ولا يقصد كذا. بل يستطيع في كثير من الحالات أن يتوقع كلامه قبل ن يتكلم، ويتوقع فعله قبل أن يفعل، وأن يتوقع أنه سيرضى بكذا ويقبله، أو أنه سيغضب من كذا وينكره...

فالعلماء الذين أفنوا أعمارهم في تدبر كلام الله وكلام رسوله، وفي تقليب النظر في أحكام الشرع وهديه – وخاصة منهم المفسرين – لهم كامل الأهلية والصلاحية ليخبرونا بما استقرؤوه وما حصلوه من مقاصد الكتاب العزيز. ولهم كامل الحق علينا أن ننصت إليهم ونأخذ عنهم.

وفيما يلي نُبَذٌ مما توصلوا إليه في هذا الباب، أذكرها لفائدتها أولا، ثم تعريفا وتنويها بهؤلاء العلماء وما قدموه لنا، وإن كان الباب يبقى مفتوحا لكل الدارسين المتدبرين.

مقاصد القرآن عند الغزالي: ثلاثٌ مهمات، وثلاثٌ مُتِمات

لخص الإمام الغزالي في أول كتابه (جواهر القرآن) المقاصدَ الجامعة التي اعتنت معظم سور القرآن وآياته ببيانها وتحقيقها، قبل أن ينطلق في شرحها وتفصيلها. قال رحمه الله:

"انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع:

ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف والتوابع المغْنية المتمَّة.

أما الثلاثة المهمة فهي:

- تعريف المدعو اليه (وهو الله عز وجل).
- وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك اليه (وهي الشريعة والتكاليف الشرعية)
- وتعريف الحال عند الوصول اليه (يقصد اليوم الآخر).

وأما الثلاثة المغنية المتمة:

فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائفِ صنع الله فيهم. وسره ومقصوده التشويق والترغيب. وتعريفُ أحوال الناكبين والناكلين عن الاجابة، وكيفية قمع الله لهم وتنكيله لهم . وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين وكشفُ فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق. وسره ومقصوده في جنب الباطل الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد"[1]

---

[1] – جواهر القرآن ص23 -24

ومن الواضح أن أبا حامد غلبت عليه ثقافته ولغته الصوفية في صياغته لهذه المقاصد القرآنية. ولا غرابة في ذلك، فإن الفطام عن المألوف شديد، كما قال هو نفسه في مقدمة (المستصفى).

مقاصد القرآن عند ابن عبد السلام: جلب المصالح وأسبابِها ودرءُ المفاسد وأسبابِها

وأما الإمام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله، فجمَع مقاصد القرآن في جملة واحدة، قال فيها: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجرُ عن اكتساب المفاسد وأسبابها"[1]

وفي موضع آخر جمع مقاصد الكتاب والسنة معا في هذا المعنى فقال:

"ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لَعَلِمنا أن الله أمر بكل خير دِقِّه وجِلِّه، وزجر عن كل شر دقه وجله، فإن الخير يعبَّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح، وقد قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}"[2]

"وأجمعُ آية في القرآن للحث على المصالح كلها والزجر عن المفاسد بأسرها، قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ؛ فإن الألف واللام في (العدل والإحسان) للعموم والاستغراق، فلا يبقى من دِق العدل وجِله شيء إلا اندرج في قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ}، ولا يبقى من دق الإحسان وجله شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان. والعدل هو التسوية والإنصاف، والإحسان إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة. وكذلك الألف واللام في (الفحشاء والمنكر والبغي)، عامة مستغرقة لأنواع الفواحش ولِما يُذكر من الأقوال والأعمال..."[3]

المقاصد الثلاثة عند البقاعي

قال البقاعي – وهو يتحدث عن مقاصد سورة الإخلاص وكونها تعدل ثلث القرآن – : "وهي وافية بأمر الإعتقاد بالوحدانية الذي هو رأس الإعتقاد ، وباعتبار أن **مقاصده كلها محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص**. وهذه السورة على وجازتها قد اشتملت على جميع المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها ، ولأجل أن هذا هو المقصود بالذات الذي يتبعه جميع المقاصد، عُدِلت في بعض الأقوال بجميع القرآن"[4]

المقاصد العشرة عند رشيد رضا

عقد العلامة محمد رشيد رضا فصلا ضافيا — في نحو سبعين صفحة – لبيان مقاصد القرآن، وذلك في الجزء الحادي عشر من (**تفسير المنار**)، عند تفسير أول سورة يونس.

---

[1] – قواعد الأحكام في مصالح الأنام – (1 / 10)

[2] – قواعد الأحكام في مصالح الأنام – (2 / 188)

[3] – قواعد الأحكام في مصالح الأنام – (2 / 190)

[4] – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – (8 / 593)

ونظرا لطوله، فإني أقتصر منه على رؤوس المقاصد التي بينها.[1]

قال رحمه الله:

"مقاصد القرآن ، في ترقية نوع الإنسان:

النوع الأول من مقاصده: الإصلاح الديني لأركان الدين الثلاثة:...

الركن الأول للدين الإيمان بالله تعالى...

الركن الثاني من أركان الدين عقيدة البعث والجزاء ...

(الركن الثالث للدين العمل الصالح ...

المقصد الثاني من مقاصد القرآن: بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل...

المقصد الثالث من مقاصد القرآن: بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ...

المقصد الرابع من مقاصد القرآن: الإصلاح الاجتماعي الإنساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان:

وحدة الأمة – وحدة الجنس البشري – وحدة الدين – وحدة التشريع بالمساواة في العدل – وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد – وحدة الجنسية السياسية الدولية – وحدة القضاء – وحدة اللغة ...

المقصد الخامس من مقاصد القرآن: تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات ...

المقصد السادس من مقاصد القرآن: بيان حكم الإسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة...

المقصد السابع من فقه القرآن: الإرشاد إلى الإصلاح المالي...

المقصد الثامن من فقه القرآن: إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر...

المقصد التاسع من فقه القرآن: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية...

المقصد العاشر من فقه القرآن: تحرير الرقبة..."[2]

وقد أعاد السيد رشيد رضا هذه المقاصد العشرة للقرآن، مع مزيد بسط لها، في كتابه (**الوحي المحمدي**)، حيث خصص لها الفصل الخامس، الذي يشكل الشطر الأكبر من الكتاب...[3]

---

[1] – انظر ذلك في: تفسير المنار – 11/ 171- 239

[2] – تفسير المنار – 11/ 171- 239

[3] – الوحي المحمدي ص 191 إلى 348

المقاصد الثمانية عند ابن عاشور

خصص العلامة محمد الطاهر ابن عاشور المقدمة الرابعة من مقدمات تفسيره لبيان مقاصد القرآن. وهذه فقرات منها:[1]

"إن **القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة** رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)، فكان **المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية ، والجماعية ، والعمرانية** . فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها . ورأس الأمر فيه صلاح الإعتقاد، لأن الإعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة ، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة ، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر . وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع ، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه ومن شيء زائد على ذلك، وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية . وهذا هو علم المعاملات ، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك؛ إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي ، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعْي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها ، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع..."

ثم انتقل إلى بيان مقاصد القرآن التي انتهى إليها استقراؤه، وهي ثمانية، نقتصر على ذكر رؤوسها وعناوينها:

"**الأول** : إصلاح الإعتقاد وتعليم العقد الصحيح...

الثاني : تهذيب الأخلاق...

الثالث : التشريع، وهو الأحكام خاصة وعامة...

الرابع : سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها...

الخامس : القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم... وللتحذير من مساويهم ..

السادس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين ، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها...

السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير...

الثامن : الإعجاز بالقرآن، ليكون آية دالة على صدق الرسول"[2]

وقد عاد ابن عاشور ليستدرك في موضع آخر من تفسيره؛ فذكر مقصدين آخرين من مقاصد القرآن. فصارت مقاصده عشرة، كمقاصد الشيخ رشيد رضا.

قال ابن عاشور: "على أن **من مقاصد القرآن** أمرين آخرين:

---

[1] - انظرها بتمامها في: التحرير والتنوير 1 / 38- 45

[2] - التحرير والتنوير 1 / 38- 45

أحدهما: كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتحَ أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

وثانيهما: تعويد حَمَلة هذه الشريعة، وعلماءِ هذه الأمة، بالتنقيب والبحث واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كل زمان لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صِيغَ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة"[1]

مقصد تعليم الفكر القويم

نلاحظ من خلال ما تقدم من كلام العلماء عن مقاصد القرآن، أنهم لم يفردوا هذا المقصد بالذكر والبيان، أي لم يجعلوه مقصدا مستقلا من مقاصد القرآن الكريم.

على أن هناك بعض الإشارات المحاذية لهذا المقصد، وردت فيما تقدم من مقاصد رشيد رضا وابن عاشور، أبدأ بذكرها قبل الدخول في تفاصيل المقصد وأدلته القرآنية.

فقد جعل رشيد رضا: "**المقصد الثالث** من مقاصد القرآن: بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ...".

ومعلوم أن القرآن إذ يبين مكانة الفطرة والحكمة والعقل والفكر والعلم والبرهان ... فإنما قصده في ذلك تثبيت هذه المكانة وتحصيل مفعولها.

وأما ابن عاشور فنص على أن من مقاصد القرآن الكريم: "تعويد حَمَلة هذه الشريعة، وعلماءِ هذه الأمة، بالتنقيب والبحث واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقاتُ علماء الأمة صالحة في كل زمان لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع".

وأقرب من هذا ما ذكره في المقصد الأول – وهو إصلاح الإعتقاد وتعليم العقد الصحيح – حيث قال: "وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل ، ويُطَهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما"[2]

ومعلوم أن علماء التشريع (أعني الفقهاء والأصوليين) مجمعون على أن (حفظ العقل) هو أحد المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية. ومما لا شك فيه أن كل ما هو مقصد للشريعة، فهو مقصد للقرآن...

غير أن ما أعنيه الآن مختلف عن مرادهم بحفظ العقل، الذي يكاد ينحصر عندهم في تحريم المسكر والعقوبة عليه. فما أعنيه ليس متعلقا بحفظ أصل العقل، وإنما أعني: تقويم منهج التعقل والتفكير...

ولتوضيح ذلك أنتقل فيما يلي إلى ذكر بعض القضايا القرآنية التي تظهر فيها عناية الكتاب العزيز بتقويم الفكر وتسديد النظر، مما يجعلنا نرى بوضوح أن هذا الجانب بالذات هو أحد المقاصد العامة للذكر الحكيم.

---

[1] – التحرير والتنوير – 3 / 18

[2] – التحرير والتنوير40/1

القرآن برهان

قال الله عز وجل:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء : 174- 175]

فالواضح من ظاهر الآية أن القرآن الكريم في جملته موصوف بأنه برهان ونور مبين.

قال ابن كثير في تفسير الآية: "يقول تعالى مخاطبا جميع الناس ومخبرا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبهة؛ ولهذا قال: { وأنزلنا إليكم نورا مبينا }، أي: ضياء واضحا على الحق، قال ابن جريج وغيره: وهو القرآن.

{ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به } أي: جمعوا بين مقامَي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم. وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن."[1]

وقد ذهب مفسرون آخرون إلى أن المراد بالبرهان في الآية هو النبي نفسه صلى الله عليه وسلم، فهو البرهان، وببعثته قام البرهان. وعلى أي من القولين فالنتيجة واحدة. قال الفخر الرازي: "والبرهان هو محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما سماه برهاناً لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل. والنور المبين هو القرآن وسماه نوراً لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب"[2]

1. الحكمة في بعدها المنهجي

ذكر الله تعالى في كثير من الآيات أنه أنزل على رسله الكتاب والحكمة، وأنه أرسلهم ليعلموا الناس الكتاب والحكمة. والحكمة ليست سوى الفهم السديد السوي للأمور، والعمل بمقتضى ذلك. فالحكمة إتقان العلم والعمل، والحكمة تنزيل الأقوال والأحكام والأفعال في مواضعها المناسبة. ولهذا قال الله تعالى:{وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة/269]

فالحكمة تعبير جامع عن المنهج القويم، الذي بعث كافة الأنبياء لبثه وتثبيته. وهذا المعنى مصرح به في كثير من الآيات، كما في هذه النماذج منها:

- لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [آل عمران/164]
- وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ [البقرة/231]
- وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ [لقمان/12]

---

[1] - تفسير ابن كثير - (2 / 481)

[2] - مفاتيح الغيب (11 / 95)

قال الإمام الطبري: "القول في تأويل قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ...}.يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا لقمان الفقهَ في الدين والعقلَ، والإصابة في القول.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل..."

ثم روى عدة أقوال بهذا المعنى، في مقدمتها "...عن مجاهد قوله:(وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمان الحِكْمَةَ) قال: الفقهَ والعقلَ، والإصابة في القول من غير نبوّة."[1]

فلقمان، وإن لم يكن نبيا على القول الصحيح، قد آتاه الله ما يشبه النبوة ويدانيها، وذلك هو الحكمة، أي العقل السليم والنظر السديد والمعرفة الصحيحة، أو كما قيل في تعريف الحكمة: **"معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه"**.

قال ابن عاشور: "... ويظهر من الآيات المذكورة في قصته هذه – يعني قصة لقمان – أنه لم يكن نبيا؛ لأنه لم يـُمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة. والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومئ إلى أنه أُلهم الحكمة ونطق بها، ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى {وَهُوَ يَعِظُهُ} [لقمان: 13]، وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغُ تشريع."[2]

2. إقامة الحجة والبرهان

أول ما تستلزمه الحكمة العلمية والعملية، أن يكون الفكر والحكم في أي شيئ قائما على الحجة والبرهان. ولذلك دعا القرآن الكريم كل من يعتقد شيئا، أو يؤمن بشيئ، أو يحكم بشيئ، أن يقدم على ذلك الحجة والبرهان.

- وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [البقرة/111]
- أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنبياء/22-24]
- قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [الأحقاف/4]
- وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام/83]

3. استعمال العقل والحواس

---

[1] – جامع البيان في تأويل القرآن- (20 / 134) – تحقيق أحمد محمد شاكر – نشر مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى: 1420 هـ – 2000 م

[2] – التحرير والتنوير – (21 / 96)

الآيات القرآنية الداعية إلى استعمال العقل والسمع والبصر، لأجل الفهم والعلم والتحقق من الأمور، كثيرة ومتنوعة في سياقاتها وتعابيرها. ومعلوم أن هذه النعم الثلاث (العقل والسمع والبصر)، هي أهم وسائل الإنسان للعلم والبحث والفهم والحكم. ومن الآيات الواردة في الموضوع:

– وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل/78، 79]

– وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء/36]

وقد وصف القرآن الكريم من يعطلون عقولهم وأسماعهم وأبصارهم ولا يستفيدون منها، ولا يستعملونها كما ينبغي، بأنهم كالأنعام أو أسوأ، وبأنهم يمشون وينظرون بكيفية منكوسة مقلوبة:

– أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهدَى أَمْ مَنْ يَمشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ [الملك/22، 23]

– وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف/179]

4. منهج ضرب الأمثال

من المعلوم أن القرآن الكريم أكثرَ من ضرب الأمثال، ومن الدعوة إلى تدبرها وتعقلها وفهم مغازيها ومراميها التعليمية والمنهجية.

نقرأ من ذلك:

– وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [العنكبوت/43]

– وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر/21]

– وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الزمر/27]

وضرْبُ الأمثال يُعَلم الناسَ الانتقالَ بفكرهم من الخاص إلى العام، ومن المعين إلى المجرد، ومن الجزئي إلى الكلي.

فالأمثال عبارة عن أشياء وحالات جزئية معينة؛ من أشخاص وصفات، وأسباب وتصرفات... ولكنها نموذجية، متكررة أو قابلة للتكرر، سواء كانت حسنة أو سيئة. فسُنَنُ الله تعالى المطَّردة الجارية في خلقه، تسمح بأن يكون المـَثَل الجزئي المضروب، ذا دلالة كلية في أمثاله وأشباهه. فالله عز وجل حينما يقول لنا: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...} [الجمعة/5]، نرى أن الكلام هنا يخص بني إسرائيل أهلَ التوراة، ولكن الحقيقة أن هذا المثل يسري ويصدق على كل

الحالات المماثلة إلى يوم القيامة. فهو تنبيه عام وتحذير متجدد...! ولذلك قال ابن عباس: الذى يتكلم والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارًا."[1]

وهكذا يكون ضرب المثل المعين معيارا للحكم ومنهجا للتفكير والاعتبار.

الوجه الآخر للقضية

وبعد ذكر هذه الأسس المنهجية، التي عني بها القرآن الكريم لتحقيق مقصد الفكر القويم، أود التنبيه على الوجه المعاكس وعناية القرآن به، أي نقده لمواطن الخلل والزلل في التفكير البشري. فالقرآن الكريم، لم يكتف بالتعليم والتثبيت لقواعد التفكير السليم، بل نبه بقوة وإلحاح على بعض الآفات والعوائق التي تعترض العقل البشري، وقد تنحرف به وتفسده. ومنها:

- **التبعية والتقليد**

نعمة العقل والفكر التي وهبها الله تعالى للإنسان، جعلها سبحانه هبة شخصية ووظيفة عينية لا كفائية. ولذلك يجب على كل واحد بصفة عينية، أن يفكر لنفسه وبنفسه، وخاصة في القضايا المصيرية. فالتفكير في القضايا الأساسية المصيرية لا يقبل النيابة ولا الوكالة ولا التفويت.

فلذلك نجد القرآن الكريم انتقد مرارا وبشدة، ما يقع فيه كثير من الناس من تعطيل لعقولهم، والانسياق والتبعية لغيرهم، دون تفكير ولا تمييز. وفي ذلك نقرأ:

– قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة/170 171]

– وقال أيضا: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة/104]

- **اتباع الخرص والظن**

وهذه آفة أخرى ومنزلق آخر، ينحرف به الفكر عن موضوعيته وسلامته. فكثير من الناس، يندفعون وراء الظنون والتوهمات والتخيلات المنطبعة في نفوسهم، أو المنبعثة من أمزجتهم، ولا يصبرون على التريث والتثبت والتحقق من الأمور بأدلتها ومن مصادرها.

قال تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس/36]

وقال أيضا:{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام/116]

وقال: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى} [النجم/23-25]

---

[1] – ذكره ابن أبي شيبة: شرح ابن بطال على صحيح البخاري – (ج 4 / ص 138)

● التسوية بين المختلفات والتفريق بين المتماثلات

وهذا أيضا أثر من آثار ضعف البصر أو سطحية النظر. فسنة الله وعدله مبنيان على التفريق بين المختلفات والجمع بين المتماثلات، لإعطاء كل ذي حكم حكمه وكل ذي حق حقه. وهو سبحانه ينكر أشد النكير، على من يخلطون ويلبسون، ولا يميزون بين المختلفات والمتفاوتات، وقد يفرقون بين المتماثلات، كما يظهر جليا في هذه الآيات:

- {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [9/19، 20]
- {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [2/275]
- {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} [القلم/35-38]
- {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية/21]
- {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [الأعراف/28، 29]
- أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [النمل/64، 65]
- {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [يس : 78 - 81]

"وقد ركز الله في فطَر الناس وعقولهم التسويةَ بين المتماثلَيْن وإنكارَ التفريق بينهما، والفرقَ بين المختلفَيْن وإنكارَ الجمع بينهما. قالوا: ومدار الاستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلَيْن، والفرق بين المختلفَيْن "(1)، وذلك أن المعهود عند العقلاء "إلحاقُ الشِّكلِ بشِكْلِهِ، وإجراءُ المِثلِ على حُكْمِ مِثْله"(2)

وقبل ختم هذه المسألة - ولمزيد من الفائدة - أذكر أن شيخنا العلامة يوسف القرضاوي خصص الفصل الخامس من كتابه (العقل والعلم في القرآن الكريم) لموضوع "تكوين العقلية العلمية في القرآن"[1].

---

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين لشنقيطي: 4/183-184

(2) لطائف الإشارات، لعبد الكريم القشيري: 6/89.

ومما قاله فيه: "ومن أعظم ما عني به القرآن في مجالنا: تكوين العقلية العلمية... ومن قرأ القرآن وتدبره بحق وجد مقومات هذه العقلية مجسمة فيه."[2]

وقد حدد مقومات هذه العقلية المنشودة والمقصودة في القرآن في العناصر الآتية:

- رفض الظن في موقع اليقين.
- عدم اتباع الأهواء والعواطف.
- رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف.
- إنكار التبعية للسادة والكبراء.
- لا تقبل دعوى بغير برهان.
- رعاية سنن الله في الكون.

كما أن الدكتور عبد الكريم حامدي تناول هذا المقصد القرآني، في كتابه (مقاصد القرآن من تشريع الأحكام)، وخصص له فصلا مطولا سماه "مقصد إصلاح العقل"[3]

تفسير القرآن وفق مقاصده

بعد هذه النبذة المختصرة عن المقاصد العامة للقرآن الحكيم، نصل إلى ذكر الفوائد الإجمالية لمعرفة مقاصد القرآن الكريم.

فمن أهم ما يستفاد من معرفة مقاصد القرآن – وفي مقدمتها مقاصده العامة – ما يلي:

1. معرفة مقاصد القرآن الكريم هي المدخل السليم إلى فهم الرسالة القرآنية على وجهها الصحيح، بلا زيادة ولا نقصان ولا إفراط ولا تفريط. فمقاصد القرآن، إنما هي ما نَص عليه القرآن، وما استُقري من معانيه وأحكامه.
2. معرفة هذه المقاصد العامة واستحضارها عند قراءة القرآن وتدبره، تساعد القارئ على الفهم الجزئي السليم للمعاني والمقاصد الخاصة بكل آية وبكل لفظ وبكل حكم في القرآن.
3. توجيه المفسرين للقرآن الكريم إلى الوجهة الصحيحة في تفاسيرهم ومناهجهم.

وهذه هي الفائدة الأهم والأوسع أثرا ؛ لأنها تشكل مصدرا ومرجعا كبير الأثر في تحقيق الفائدتين الأولى والثانية. فبها يتسدد المفسر في تفسيره، وهي التي تعصمه من الانجرار وراء أمور لا مكان لها في مقاصد الكتاب العزيز. فإذا استد منهج المفسر في تفسيره، انتقل أثرُ ذلك إلى قرائه وإلى عامة المسلمين، وإذا اختل منهجه أصابهم من خلله.

ولذلك اعتبر ابن عاشور أن مقاصد القرآن يجب أن تكون هي نفسها مقاصدَ المفسر ومحورَ اهتمامه في تفسيره. قال رحمه الله: "فغرضُ المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في

---

[1] – من ص249 إلى ص 282

[2] – العقل والعلم في القرآن الكريم ص249-250

[3] – انظر ص66 وما بعدها.

كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ ، من كل **ما يوضح المراد من مقاصد القرآن**، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، **أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا**..."[1]

وعلى هذا الأساس انتقد الشيخُ رشيد رضا إغراق بعض المفسرين تفاسيرهم باستقصاء الروايات والآثار ذات الصلة القريبة والبعيدة بتفسير الآية، مما يشغل ويصرف عن تقصي المقاصد القرآنية وتدبرها وبيانها. قال رحمة الله عليه: "أكثرُ ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس، المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات، التي لا قيمة لها سندا ولا موضوعا ... فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح"[2]

وهو من – باب أولى – يرفض ولع بعض المفسرين بالاستطرادات التاريخية والجغرافية، عند تفسيرهم بعضَ القصص والوقائع المذكورة في القرآن. وفي هذا يقول: "بيَّنَّا مرارا أن أحداث التاريخ وضبطَ وقائعه وأزمنتها وأمكنتها **ليس من مقاصد القرآن**، وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم، فإنما هو بيان لسنة الله فيهم، وما تتضمنه من أصول الدين والإصلاح"[3]

وقد اعتبر أن غياب المقاصد الأساسية للقرآن الكريم وضياعها، هو "مثار جميع الفتن والمفاسد التي يشكو منها عقلاء هذا العصر"[4]

المصادر والمراجع

1. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي- دار الفكر ببيروت – 1415هـ/1995م
2. البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة : الأولى ، 1376 هـ - 1957 م – ناشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
3. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي – نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان – الطبعة : الأولى، 1420هـ/2000م
4. تفسير ابن كثير – تحقيق سامي سلامة – الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة الثانية 1420هـ /1999 م
5. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا – 11/ 171- 239- نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب/1990م

---

[1] – التحرير والتنوير 1/41-42

[2] – تفسير المنار 1 / 10

[3] – تفسير المنار 12 / 84

[4] – الوحي المحمدي ص 68

6. جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري - تحقيق أحمد شاكر ومحمود شاكر - الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ، 1420 هـ - 2000 م

7. جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي - تحقيق محمد رشيد رضا القباني - دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الأولى ، 1985

8. شرح ابن بطال على صحيح البخاري (نسخة إلكترونية).

9. العقل والعلم في القرآن الكريم، ليوسف القرضاوي – نشر مكتبة وهبة بالقاهرة – الطبعة الأولى 1996/1416

10. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لعز الدين بن عبد السلام - تحقيق محمود بن التلاميد الشنقيطي – نشر دار المعارف بيروت – لبنان – د ت

11. لطائف الإشارات، لعبد الكريم القشيري – (نسخة إلكترونية)

12. مصاعد النظر للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، لبرهان الدين البقاعي- نشر مكتبة المعارف – الرياض - الطبعة الأولى : 1408 ه - 1987 م

13. مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي - نشر دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى 1421هـ - 2000 م

14. مقاصد الشريعة الإسلامية، لمحمد الطاهر ابن عاشور - تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، طبعة قطر، بإشراف وزارة الأوقاف القطرية – 2004/1425

15. مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، لعبد الكريم حامدي - نشر دار ابن حزم ببيروت – الطبعة الأولى 2008/1429

16. النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز - نشر دار الثقافة ـ الدوحة 1985

17. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، لأحمد الريسوني – نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الطبعة الخامسة 2007/1428

18. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي - تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي - دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت – 1415هـ / 1995م

19. الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا - نشر مؤسسة عز الدين للطباع والنشر – الطبعة الثالثة 1406.